

الكتاب الذي يجب أن تفرضه الدولة على كل

وزير وكل موظف إداري

الريف السوري

خلال عهد الرئاسة الأولى لفخامة السيد شكري القوتلي استقبل فخامته المستشرق البريطاني الشهير جيب في اجتماع شخصي ودي وخلال تبادل الأحاديث سأل جيب فخامة القوتلي: أحقاً إنكم لم تنتشروا حتى الآن تاريخ دمشق لابن عساكر، كيف ذلك وأنتم مستقلون وتراثكم الثقافي بين أيديكم، وقد أثارت هذه الملاحظة فخامة القوتلي فاستدعى في الحال المغفور له الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي وكلفه بأن يعمل بدون تأخير لإخراج تاريخ دمشق لابن عساكر مهما كلف الأمر وقد شرع المجمع فعلاً بهذه المهمة وأخرج حتى هذا التاريخ مجلدين ضخمين من أصل ثمانين مجلداً هي تاريخ ابن عساكر.

وتاريخ ابن عساكر في جانبه الأعظم تراجم أشخاص وإيراد أحاديث وأقوال، ولاريب في أنه يتضمن معلومات هامة وواسعة عن منشآت ومرافق في دمشق اندثرت الآن وفيه وثائق تاريخية ضخمة، ولكنه لا يوضح لنا شيئاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك العصور التي شملها وكتب عنها، ونحن الآن أمام محاولة لتعريف بلادنا، أكثر مما يعرفنا عليها تاريخ ابن عساكر العظيم محاولة عصرية يقوم بها فاضل غيور وبحاجة مدقق هو الأستاذ وصفي زكريا وذلك في الكتاب الذي صدر منه الجزء الأول منذ أسابيع وهو (الريف السوري - محافظة دمشق) ولو كان في البلد تقدير للعلم الصحيح والتأليف القيم لأحدث صدور هذا الكتاب ضجة ولتطوع الكثيرون من الناس لتقريضه والتدليل على

أهميته، ولكن الكتاب صدر ونزل إلى الأسواق ولم يقل عنه أحد شيئاً، وغاص في هذا الفيض من المنشورات التافهة ولقد سلك الأستاذ زكريا طريقاً طقوسها وطرز دورها ونزعات أهلها، كما يشرح متاعبهم ونقائص منطقتهم وحاجياتها وما يجب القيام به لسد هذه الحاجات، ورفع مستوى حياة المنطقة.

ويعني الأستاذ المؤلف بالوصف الطبوغرافي عناية دقيقة فهو يصف المنطقة المبحوث عنها ويصور جبالها ووديانها وتضاريسها وأشكالها الجيولوجية بشكل مشوق والصفحات التي كرسها لجبال سنير وقلمون شيقة وهامة، كما أن وصفه لطريق دمشق . حمص وما فيه من منعطفات ومهابط ومساعد ولافتات للنظر بديع.

وما كتبه عن القلمون لم يجمع في كتاب من قبل، ومجرد قراءته تعطي أدق الصور الصحيحة عن هذه المنطقة التي كانت في عزلة تاريخية عن العالم حتى أمد قريب رغم قربها من دمشق.

وهناك تفاصيل عن البادية ومواقعها وعشائرها تتضمن معلومات ثمينة للغاية وتفاصيل مماثلة عن قرى نواحي النبك وبيرود والقطيفة ودوما والبادية والنشابية والنل.

إن هذا الكتاب لا يمكن إيفاءه حقه في عجالة كهذه لا نملك فيها إلا نظرة العابر المسرع وجل ما يمكن أن نقوله إن من واجب الدولة أن تفرض مطالعة هذا الكتاب على كل موظف إداري مهما سما شأنه، وقد دأب بعض الوزراء في عهود شتى على فرض كتب لبعض المحسوبين على الدوائر الإدارية في المحافظات والأقضية وعلى الوجوه والمخاتير وأصحاب المصالح، وهذا عمل مجحف، ولكن كتاباً ككتاب الريف السوري يجب أن يفرض فرضاً على كل موظف إداري، ويجب أن يقتنيه كل مواطن يرغب في التعرف على بلاده لأنه فعلاً وحقاً يروي الغليل ويسد الحاجة.

ولن أختتم هذه الكلمة قبل أن أنوه بملاحظتين قيمتين لهما دلالة كبيرة وردنا في الكتاب، لقد لاحظ الأستاذ زكريا أنه لا يوجد في سوريا حفاء فليس في كافة قرأها من أفقرها وأتعتها إلى أغناها وأسعدها فلاح لا ينتعل حذاء، ولاحظ أيضاً أنه لا يوجد أيضاً فلاح سوري يرتدي أسماً بالية وخرقاً مهلهلة، بينما يوجد الحفاة والعراة في بعض العواصم العربية بالآلاف، وهذا وحده أقوى دليل على ارتفاع مستوى الحياة في سورية عنه في غيرها من بلدان الشرق.

وإنني لأختتم كلمتي شاعراً بأني لم أوف الكتاب حقه، وأمل أن يقوم غيري بهذه المهمة.